الثورة الفكرية في أدب المهجر

بقلم حارث طه الراوي

لم يكن شعراء المهجر وكتابه* من انصار نظرية «الفن للفن» أو «الأدب للأدب» فقد كانوا وما زالوا من دعاة نظرية «الأدب للحياة»، لهذا لم يقفوا عند حدود الثورة الفنية التي نجحوا فيها إيما نجاح، لانهم ادركوا ان هذا الوقوف يؤدي حتماً الى ركود ادبهم وذبول العنصر الابداعي فيه. وبالرغم من انهم عاشوا في بيئة تفصل بينها وبين أوطانهم بحار رهيبة الاتساع، فقد آثروا ان يعبروا هذه البحار الشاسعة بأرواحهم المجنّحة ليشاركوا اخوانهم في الشرق العربي مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

لقد كان العالم العربي قبل حوالى نصف قرن يئن تحت كابوس الاستبداد العثماني ويصرخ تحت جمر الاقطاعيين والرأسماليين الرجعيين. وقد كانت أي فكرة تقدميّة مهما كان نصيبها من النزعة التجددية الحرة، تُعدّ خروجاً لا على العرف الاجتماعي البالي فحسب، وإنما على الدين وتحدياً لرجاله. وبالرغم من ان المرحوم قاسم امين عندما رفع صوته لتحرير المرأة كان متمسكاً بجوهر الدين الاسلامي، فانه لم يسلم من الزندقة التي ألصقها به ظلماً وعدواناً رجالٌ يدعون أنهم حماة الدين في حين انهم في الواقع حماة الرجعية واعوان الطغاة والجبّارين ...

وفي مستهل القرن العشرين جمع «جبران خليل جبران» بعض قصصه التي تمثل ثورة الكاتب التقدمي على الرجعية والاستبداد واسماها «الأرواح المتمردة». وما كادت تصل الى مدينة الاشعاع «بيروت» حتى اصبحت طعاماً للنار في ميدان عام من ميادين مدينة الفكر وفقاً لمشيئة طغاة العثمانيين. ولكن متى أُحرق كتاب مفيد واشتعلت معانيه مع الأوراق؟ لقد بقيت افكار جبران، نبراساً لكل متمرد وكانت الألسن وما تزال تردد على الجبل الأبيض قصة «خليل الكافر» وتترنم بنشيده الخالد عن الحرية:

«بخبثهم واحتيالهم فرقوا بين العشيرة والعشيرة وابعدوا الطائفة عن الطائفة، وبغضوا القبيلة بالقبيلة، فحتى متى تتبدد كالرماد امام هذه الزوبعة القاسية، وتتصارع كالاشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة؟

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي لمقاتلة العربي، وجسوا الشيعي لمصارعة السني، ونشطوا الكردي لذبح البدوي، وشجعوا الاحدي لمنازعة المسيحي — فحتى متى يصرع الاخ اخاه على صدر الام، والى متى يتوعد الجار جاره ويتباعد الصليب عن الهلال امام عين الله؟».

وقد ثار جبران في ادبه الحيّ على المتزمتين الرجعيين من رجال الدين مثلما ثار على الرجعية الطاغية في شرقنا العربي. والذي يقرأ قصته «وردة الهاني» في ارواحه المتمردة يدرك هذه الحقيقة بجلاء، ويقف على الصراع بين عقلية النور وعقلية الظلام، وتظهر له بجلاء ما بعده جلاء شناعة الزواج الاعمى الذي يجعل من المرأة دمية فاقدة الحسّ والاختيار.

ووردة الهاني غادة حسناء أُجبرت على الزواج من رجل كهلٍ سطحي التفكير «لا ينظر الى ما وراء الاشياء بل الى الظاهر منها. ولا يصغي الى نغمة نفسه بل يشغل عواطفه باستماع الاصوات التي يحدثها محيطه ...». فتمردت وردة على هذا الوحش البشري ووجدت لعواطفها الروحية الحبيسة متنفساً مع شاب يعرف معنى الحب لانه يعرف معنى الحياة.

وقد أثارت هذه القصة نقمة المحافظين، والغريب ان المنفلوطي المعروف بنزعته الانسانية التجددية كان في طليعة الذين هاجموا جبران وقصته في كتابه «النظرات» تحت عنوان «الحب والزواج». ولعل اخطر ما قاله في هجومه:

«وسواء كانت القصة حقيقية او خيالية فالحق اقول ان الكاتب اساء في وضعها، وما كنت احسب الا ان مذهب الاباحية قد مضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين الامة العربية فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به!!.»

الا أن مثل هذا الانتقاد الرجعي لم يثنِ جبران عن تقدميته، وقد كتب على اثر هجوم المنفلوطي الى صديقه امين الغريّب رسالة يقول فيها:

«اظن بأن سليم افندي سركيس قد اخبرك عن الانتقاد الذي كتبه السيد مصطفى المنفلوطي بشأن (وردة الهاني) ونشره في جريدة المؤيد؟ اما انا فقد سررت جداً بالانتقاد لان الاضطهاد هو غذاء المبادىء الجديدة خصوصاً اذا كان صادراً عن رجل «اديب» مثل المنفلوطي ...».

* فصل من كتاب «ادب المهجر» المعد للطبع.

لقد كان جبران ينادي بحرارة وايمان بالمبادىء الانسانية ، وبالأفكار الثورية بالرغم من إعراض الرجعيين عنه . وحسبه ان يقول قبل اكثر من ربع قرن ما مضمونه « من رأى ظلماً ولم يثر عليه فهو شريك السفاحين في قتل الابرياء » [1]

★

أما « الريحاني » فقد درس الحياة الرجعية في العالم العربي دراسة مفكر عميق ، فتبلورت في أعماقه فكرة اصلاح شامل تستهله ثورة جارفة تشمل الفكر والروح والمادة كالثورة الفرنسية ، فتبوأ مكانة فولتير في البعث الجديد .

وقد هال «الريحاني» ان يرى بلاده تحبو وراء الامم بسبب التعصب الديني الطائفي الذي يشجعه الجهل ويباركه الاستعمار ، فعزم على محاربة هذه النظرات السطحية المقيتة في اوساط المهاجرين في « نيويورك » . وقد اشترك في جمعية الشباب الماروني في هذه المدينة ، ولما كُلّف بوضع خطاب الافتتاح للحفلة السنوية للنادي في ٩ شباط عام ١٩٠٠ انتهز هذه الفرصة الذهبية وجمع أفكاره البركانية في خطاب تقدمي هاجم به التعصب الديني والمذهبي منادياً بالتساهل الديني والتسامح الذهبي ، فعلم بالأمر بعض الكهنة والتمسوا من أبيه (فارس الريحاني) أن يؤدب ولده على هذه الزندقة الهدّامة !! — ولكن بالرغم من كل هذه المحاولات ألقى امين الريحاني خطابه الناريّ فانقسم الحاضرون له وعليه ؛ وبين تصفيق الاحرار وضجة الرجعيين رسم الامين في تلك الحفلة الخطوط الاولى لتحرره الفكري الذي اظهرته « الريحانيات » و « النكبات » وباقي كتبه بجلاء .

ولما عاد امين الريحاني من مهجره الى وطنه ، طفق يخطب في اشهر النوادي منددّاً بالرجعية والاستعمار الفرنسي الجائر . حاملاً باحدى يديه لواء التحرر الفكري وبالأخرى معول هدم الرجعية بمفهومها الواسع ...

★

وأما « ميخائيل نعيمة » فقد عُني بالثورة الفنية أكثر من عنايته بالثورة الفكرية ، وليس أدلّ على ذلك من كتابه «الغربال» . فقد كانت وما زالت تهيمن على هذا المفكر العميق مشاعر صوفية وأحاسيس روحانية تسد عليه المسالك التي توصله الى واقع العالم العربي . وبالرغم من النزعة الانسانية الصادقة التي تشيع في مؤلفاته القيمة فان نظرية التناسخ ، تناسخ الأرواح ، لا يخلو منها او من التلويح بها مؤلف من مؤلفاته !

ولما عاد « نعيمة » من مهجره الى قريته « بسكنتا » الغافية على كتف صنين ، حسب الناس ان هذا الكاتب المجدّد سيواجه مشاكل العالم العربي بأسلوب واقعي ثائر كزميله الريحاني ، ولكن سحر الجبل ، وسذاجة القرية ، وجمال الصخور ، وروعة الضباب ؛ كل ذلك دفع نعيمة الى الاغراق في صوفيته والى تمجيد الخيال والدعوة الى الحسّ الباطني .

وكأنه شعر بهذا الجفاء بينه وبين الواقع ، او بينه وبين جيله ، فأخرج للناس كتاباً صغير الحجم ولكنه كبير الأهمية ، يعدّ في نظري وفي نظر كل منصف دستوراً للاشتراكية الصحيحة والتفكير التقدمي الصحيح ، وحبذا لو استمر هذا المفكر الجبار ينسج على هذا المنوال ... وهذا الكتاب الذي نحن بصدده هو كتاب « الأوثان » . وقد تناول فيه ميخائيل نعيمة بأسلوب واقعي جذاب بمقالات متتابعة « المال » و« القوة » و « السلطان » و « الرأي العام » و « القومية » و « الكلمة السوداء » و « العلم » .

قال « نعيمة » في موضوع « المال » منددّاً بالأنانية الفردية بروح اشتراكية سامية :

« اما الفلس فقد فعل ما لا تستطيع فعله لا الابالسة ولا الملائكة . اذ اقام اثماناً فردية للجهود الفردية . فجعل الواحد بمقام الالف — واحياناً بمقام المليون . وجعل قيمة البعض صفراً على اليسار . هنا السر . هنا الفخ والمزلقة . هنا منبع هائل من منابع البغض والحسد والنزاع بين الناس .

لقد كان من خدعة الفلس الجهنمية ان اصبح في استطاعة انسان واحد ان تكون له حصة ألف انسان في ثروة البشرية المشتركة ، وان يكون ألف انسان بدون حصة واحدة . لقد نتج عنها استعباد الانسان للانسان ، وانقياد الجماهير للفرد ، واستئثار من حالفهم الفلس لمن عاداهم . تلك هي مأساتنا ، وذاك هو الخزي — خزينا كلما تمادينا في عبادتنا للرمز فجعلناه شكيمة في فم الرموز اليه ، وغلاً في عنقه : واداة لاستعباده » .

★

ومن كتّاب المهجر وشعرائه الثائرين المرحوم « امين مشرق » الذي علا كعبُه في الثورتين : الفنية والفكرية . ولعل أسطع حجة على تحرره الفكري مقاله الطويل « أردية الآباء » الذي نشره مختصراً الاستاذ محيي الدين رضا في كتابه « بلاغة العرب في القرن العشرين » . وقد خاطب المرحوم امين مشرق بمقاله هذا شبان وفتيات الجيل العربي الجديد محطماً عنهم اغلال العبيد نافضاً عن ارواحهم غبار القرون المظلمة ؛ وانك لتلمس في كل جملة من جمله بل في كل كلمة من كلماته لهباً يتأجج وعزماً يتدفق :

(١) النص الحرفي لهذا القول منشور في كتاب « الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية فيه » لمؤلفه رئيف الخوري .

« الى اخواني الشبان واخواتي الشابات الناظرين الى الحياة الجديدة بعيون المحبة والشوق – الى كل فتى وكل صبية ينظران الى اثواب الآباء بازدراء واشمئزاز والى كل قديم بكره ونفور – الى العقول المستنيرة التي تطلب الخروج من ظلمة الاوهام – الى الارواح المرتعشة حنيناً الى الحرية المتعطشة الى ينابيعها العذبة – الى النفوس الباسلة الكارهة جلجلة السلاسل ، المتمردة على اجيال العبودية – الى جميعكم ايها البواسل ارفع صوتي بأمل وافتخار وانادي – سيروا ! »

الى ان يقول :

« هبوا ولتنفض عنا غبار الخضوع والطاعة العمياء . انت ايها الفتى وانت ايتها الفتاة اللذان ربط الحب قلبيهما فتعاهدا على الزواج لماذا تخضعان لأرادة والديكما فتمزج انت حياتك بحياة لم توجد لها ، وتلتصقين انت برجل لم يخلق لك ؟ – لماذا تقتلان الحب لتحيا وهما يدعى الطاعة الوالدية ؟ واي فضل تحرزانه في هذا العمل ؟

وانت ايتها المظلومة التي تحمل (جزدانها) قارعة الابواب من صباحها الى مسائها لتجمع بضعة ريالات ينثرها زوجها على مائدة القمار ويرجع ليلاً لمجازاتها بالشتم والضرب، لماذا لا تتركين هذا الزوج الفاسد وتبصقين في وجهه ووجه كل مذهب وشريعة تربطك به الى الابد ؟!

وانت ايتها الصبية التي زوجوها صغيرة من كهل لا تميل اليه فتركته وآلت على نفسها ان تعيش حياتها وحيدة ، لئلا يسلقها الناس بألسنتهم البذيئة لماذا تبعدين عنك شاباً يعبدك وتعبدينه إكراماً لتلك الألسنة ؟ ولماذا لا تدوسين كل قلنسوة ولحية تقفان بينكما وتفقئين حصرماً في عيون ترى الحقيقة عاراً وزنى ؟ قد بدأت فلماذا لا تكملين ؟

انتم ايها المظلومون جميعكم لماذا لا تكسرون هذه القيود وتحطمون هذه السلاسل القديمة وتمرحون في فضاء الجديد وتعتصمون في معاقل القوة ؟؟. »

ولا شك بان هذه الصرخات الداوية لا تنطلق إلا من اعماق قلب رجل متطرّف في تحرره الفكري الى أقصى حدود التطرف .

★

اما الثورة الفكرية في الشعر المهجري فتتجلّى بوضوح في صرخات القروي وفي صيحات عريضة وابي ماضي وعقل الجر وشكرالله الجرّ وفوزي المعلوف وشفيق المعلوف وغيرهم .

فأي مثقف عربي لم يقرأ أو لم يسمع زئير « أعاصير » القروي التي ما برح صداها يتردّد في الأرواح النيّرة والعقول المتحررة ؟ ويقيني ان أي ناقد منصف لا يجد قصيدة ثورية من قصائد هذا البلبل الأبي خالية من العناصر التي تكفل لها الخلود ؛ لهذا اجدني اسير الحيرة عندما اشرع في اختيار بعض قصائده لأدلل على مدى الثورة الفكرية عند هذا الشاعر الشريف .

إسمعه كيف يخلّد الثورات التحررية في بلاده ويمجّد المناضلين ويحث على الجهاد المقدّس ؛ ففي عام ١٩٢٥ وصفت الصحف الغربية بإعجاب عظيم زحف القائد سلطان الاطرش برجاله على السويداء لانقاذ الاسير الذي قبضت عليه السلطة الفرنسية في بيت سلطان ، خارقةً حرمةَ الضيافة العربية ، والتقاء البطل العربي التنك (الدبابة) وهجومه عليها تحت وابل من الرصاص وتعطيلها بعد هبر قبطانها ومعاونه الافرنسيين بحدّ السيف هبراً :

خففت لنجدة العاني سريعا ... غضوباً لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمع ... بهم – وبدونهم – تفني الجموعا
كأنك قائد منهم هضاباً ... تبعن الى الوغى جبلاً منيعا

الى ان يقول :

وقد هطل الرصاص عليك سحاً ... كوسمي جليت به ربيعا
زعقت بمثل فرخ النسر طرف ... يجن إذا رأى سهلاً وسيعا
يجن الى الوغى تحنان أم ... بحضن غريبة تركت رضيعا

ثم يحثنا « القروي » على التمسك بأهداب القوة – القوة الموجهة لا القوة الاجرامية العمياء ، القوة الموجهة ضد الاستعمار الغاشم لا ضد الشعوب الآمنة :

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب ... بسيف محمد واهجر يسوعا
« أحبوا بعضكم بعضاً » وعظنا ... بها ذئباً فما نجت قطيعا
« فيا حملاً وديعاً » لم يخلف ... سوانا في الورى حملاً وديعا
ألا أنزلت انجيلاً جديداً ... يعلمنا إباء لا خنوعا
أجرنا من عذاب النير لا من ... عذاب النار إن تك مستطيعا !!

★

اما « ايليا ابو ماضي » فبالرغم من وفرة اغانيه الروحية التي يتراقص فيها الحنين المعطّر بالخيال ؛ وبعبارة أدقّ بالرغم من كثرة شعره الذاتي فله شعر ثائر يستمد حممه من اعماق تلك النفس المفعمة بالحمم واللهب . إسمعه في قصيدته الخالدة « تحية الشام » :

عجباً لقومي والعدو بنابهم ... كيف استطابوا اللهو والالعابا
وتخاذلت أسيافهم عن سحقه ... في حين امسى النصر منهم قابا
دنياك يا وطن العروبة غابة ... حشدت عليك أراقماً وذئابا
فالبس لها ماء الحديد مطارفاً ... واجعل لسانك مخلباً او نابا
لا شرع في الغابات إلا شرعها ... فدع الكلام شكاية وعتابا ...

★

أما شاعر الأحزان الثائرة ، والحيرة الصارخة ، نسيب عريضة فحسبك ان تقرأ له انشودته الثائرة « اهزوجة » التي شقّ فيها للشاعر المناضل الطريق السويّ الى خدمة شعبه والذود عن حياضه، والذود عن الغيبيات عندما تدعوه الملمات :

يا شاعر الأوطار ... خلّ الهيام
قم حطم القيثار ... وانفضْ الحسام
واصنع من الاوتار
قوساً لأخذ الثار

واخلع قميص العـــار
والبس ردا الجبـــار
ثاراتنـــا شتى عنـــد الزمـــان
لا تنمحـــي حتى تأبى الهـــوان
فانزل عن الاقـــار
لا ترقب الاقـــدار
اشعل لدينا النـــار
اضرم بهـــا الافكار

★

والمعروف عن «شفيق معلوف» - عميد العصبة الاندلسية - انه شاعر ذاتي، مسرف في ذاتيته، ولكن له في مجال استنهاض الهمم قريضاً يجلجل بأجراس العربية الصافية؛ من ذلك قصيدته «في ذمة الزمان» المنشورة في ديوانه الرائع «نداء المجاذيف» التي صوّر فيهـا وطنه الراضخ آنذاك - عـام ١٩٢٦ - تحت كابوس الاستبداد الفرنسي الجائر :

وطني موطىء الغريب ولا أملـك منه حتى الحصى والـترابا
وردة في فم الدخيـل فما يمت ورداً الا وجـدت سرابا
بـلد تأنف الصوادح فيـه ان يساكنّ في الخراب الغرابا
ومغان ضاقت على قاطنيهـا هجروها واغلقـوا الابوابا
اي ويـل دهى الشآم فاني لا ارى في الشآم الا خرابا
وثكالى على الطـلول اكبت بشعور شعث تشق الثيـابا
يا خضيب الثرى فديتك كم من قلب أم على حضيضـك ذابا

هـــذه المامة عجلى بثورة الفكر المهجري ، تلك الثورة الخالدة التي لا ينكر اثرها الايجابي في الفكر العربي الحديث إلا الأعمى أو المتعامي . ولا أزعم اني احطت برجال هذه الثورة الابداعية احاطة تامة لأن عددهم غير قليل ، وحسبي ان أشير الى علمين في هذا المضمار همـا الياس فرحات والياس قنصل . وسأفرد فصلاً كاملاً في كتابي هذا عن شاعرنا العظيم الياس فرحات.

بغداد **حارث طه الراوي**

صدر عن دار العلم للملايين (شعر)

		ق.ل
العرائس	للاستاذ ابراهيم العريض	٢٢٥
قبلتان (قصة شعرية)	« « «	١٧٥
مختارات من الشعر الاندلسي	للدكتور نيكل	٤٠٠
سامبا	للاستاذ نزار قباني	٥٠
قلب يغني	للاستاذ وديع ديب	١٠٠
ارض الشهداء (ملحمة عن فلسطين)	« ابراهيم العريض	٢٠٠
عشتروت وادونيس (ملحمة)	للدكتور حبيب ثابت	٤٠٠

غروب

[صوت من مراكش]

سائلوا الشمس اين غابت وهل حان لها ان تظل بعد المغيب؟
أظلم الشرق يوم غابت وعام الكون في وحشة الظلام الرهيب
وطن طالمـــا أضاءت روابيه وحنت إلى ثراه الحبيب
خير برج ثوت به فاستطابته مقاماً وخير وادٍ خصيب
ألبسته من فائض النور تاجاً عميت من سناه عين الخطوب .
ومشت حوله تباهي به الاجيال في نشوة المحب الطروب .
ثم غابت فأطبق الشرق جفنيه وأخفى صداه هول الغروب
وطوى صدره على جرحه الدامي وأخفى ضراعة المنكوب
سائلوها وإن في الافق الباكي بقايا اشعـــة في شحوب
ودعت شاطىء الغروب ومدت لبنيها يد الغريق المهيب
فابسطوا الايدي التي زانها القيد ولبوا نداء داع مجيب
وانشلوها فإن فيها ذمـــاء لا تضيعوه بالاسى والنحيب
واسجدوا حول عرشها خشع الابصار في تربة المسيء المنيب
فعساها تنسى لكم ما جنيتم من عقوق وما مضى من ذنوب
لا تعقكم هذي القيود ففك القيد سهل على الشباب الغضوب
موجة إثر موجة يبهر العين سناها وتلتقي في القـــلوب
فاسكني يا عواصف الموت او هبي فأعصارنا شديـد الهبوب
واخسئي يا طلائع الشر وارتدي ويا دولة المطامع خيبي
أيها الراتعون فوق ضحاياكم هنيئاً لكم دماء الشعوب !
فاشربوا ملء هامهم واغمسوا الايدي في قانىء الدم المسكوب
واجلدوا الناس بالسياط وسوقوهم جميعاً الى جحيم الحروب
فبكم قامت السماء ! وانتم قادة السلم ! يا حمـــاة الصليب
واليكم يسعى المضيم إذا اهتاج ونادى بحقـــه المغصوب
ايها الآمنون غدر الليـــالي والليالي ، يلدن كل عجيب
حسبكم ! فالوجود يسبح في وادي دماء ويصطلي باللهيب
ضاق ذرعاً بنا وضقنا به ذرعاً وشابت صباه قبل المشيب
فارحموا العالم الجريح وفكوه من القيد واحتلال الغريب
واسألوا الشمس اين غابت وهل حان لها ان تظل بعد المغيب
سائلوهـــا فإن في الافق الباكي بقايا اشعة في شحوب
إنها شمس كل حي يود العيش حراً وشمس كل الشعوب

فاس **محمد الحلوي**